تشاكلات النص السجنى

عبد الرحمن منيف نموذجًا

عبد الرازق الحيدرى

يلعب مفهوم التشاكل الدلالى(١) دورًا رئيسًا فى تشييد مسار الدلالة داخل الخطاب بصرف النظر عن شكل تمظهره، ذلك أنه يضمن للنص الانسجام والاتساق انطلاقًا من تكرار وتكثيف الوحدات المعجمية المندرجة بدورها فى إطار مجموعة من المقومات السياقية classèmes التى تعنى جملة المقومات(٢) sèmes المتكررة فى الخطاب والضامنة بناء التشاكل.

كما أن التشاكلات الدلالية، وانطلاقًا من الوحدات المعجمية الواردة فى النصوص، تسهم فى دفع الخطاب الروائى وإكسابه صفة الدينامية ذات العلاقة بتطور البرامج السردية وإبراز المسارات السردية للفواعل داخل البنية التركيبية. لذلك، فإن الوحدات المعجمية المتراكمة والمتجسدة فى مستوى التجلى النصى تلعب وظيفتين رئيستين فى التحليل: الوظيفة الأولى تتصل بالمستوى التركيبى، حيث تساعد على تحديد عناصر البنية التركيبية (الفواعل والبرامج السردية) ورصد مختلف العلاقات بينها. أما الوظيفة الثانية فتتصل بالمستوى الدلالى، حيث تنتظم التشاكلات الدلالية والقيم المضمونية المؤطرة للخطاب، بما يحيل على الأنساق القيمية التى يخفيها النص، وبالتالى تبين الأطر السوسيوثقافية بأبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية المثمنة أو المرفوضة.

وانطلاقًا من هذا التداخل بين المستويين التركيبى السردى والدلالى العميق يبحث مفهوم التشاكل فى المكونات الواردة داخل الخطاب التى تضمن للنص الوحدة والاتساق الدلاليين. وهو مبدأ منظم للنص.

وقد تساءل جريماس عن قضية الوحدة الدلالية بالبحث فى العناصر المهيكلة لاشتغال الخطاب بقوله: "كيف يمكننا [...] تفسير أن مجموعة تدرّجية من الدلالات تنتج رسالة متشاكلة؟ فثمة شىء مؤكد: سواء بدأنا بتحليل الخطاب من فوق، أىْ بالانطلاق من لفظة تحدد بصفتها وحدة معنى، أو شرعنا فى ترتيب الوحدات التركيبية الأوسع من خلال الوحدات الدنيا المكونة له، فإن مسألة وحدة الرسالة التى تفهم بوصفها كلاً دالاً تُعَدُّ أمرًا مطروحًا حتمًا"(٣).

كذا، يبحث جريماس فى المقطع السابق عن الصيغ التى تفسر موضوع الاتساق فى الخطاب، كما يرى أن وحدة الخطاب تظل أمرًا ضروريًا

مطروحاً على الباحث بصرف النظر عن منهج التحليل الذى يتوخاه، سواء بالانطلاق من تحليل الوحدات المعجمية أو تحليل الخطاب فى مجموعه بالتركيب بين كل الأقوال ومكوناتها الدنيا.

وعلى أساس البحث عن الانسجام داخل الخطاب، يرى جريماس أنه بواسطة بناء مفهوم التشاكل "يمكننا إبراز كيف أن كل النصوص تتحدد فى مستويات دلالية منسجمة وكيف أن المدلول العام لمجموعة دالة، عوض أن يلتمس بشكل قبلى [..]، يمكن تأويله بوصفه حقيقة بنيوية للتمظهر اللغوى"(٤).

إن البحث عن المعنى لن يتحقق، وفق هذا المقطع، بشكل سابق، ولكنه يشيّد انطلاقًا من تحليل العناصر اللغوية المشكلة للنص بوصفه تجليًا ظاهرًا وإبراز مختلف العلاقات المنسوجة بينها والوظائف التى تؤديها. لذلك، فإن مفهوم التشاكل يشتغل فى إطار عام هو مسار تشييد الدلالة وتحقيق الاتساق داخل الخطاب.

وبخصوص آليات اشتغال هذا المفهوم يرى جريماس أن التشاكل "هو استمرار قاعدة تدرجية للمقومات السياقية التى تمكّن، نتيجة انفتاح [..] المقولات السياقية، catégories classématiques من تحقيق تغيرات وحدات التمظهر unités de manifestation وهى وحدات عوض أن تقوّض التشاكل لا تعمل إلا على تأكيده"(٥).

يكشف النص السابق عن صيغتين عمليتين يتحدد فى ضوئهما مفهوم التشاكل: الصيغة الأولى هى تراكم المقومات السياقية فى النص المنسجمة دلاليًا مع المقولات السياقية. أما الصيغة الثانية فتتمثل فى أن وحدات التمظهر المتجسدة فى النص لا تهدم التشاكل بل تؤكده، وذلك لأنها تنتظم فى إطار المقومات السياقية نفسها.

من هذا المنطلق يتحقق التشاكل بتكرار المقومات السياقية أو المقولات الدلالية. والمقوم السياقى يرتبط بالتحليل المقوماتى -analyse sé mique ويهدف إلى إبراز الاختلافات الدلالية الماثلة فى الوحدات اللغوية اعتمادًا على سماتها المميزة، كما يتشكل هذا المفهوم من مفاهيم أصغر كمفهوم المقوم. كما يرى جريماس أن "المشكل المطروح، فى مستوى النص، حين نريد الانتقال من جملة منجزة فى لغة طبيعية إلى جملة تليها مباشرة، هو الاتساق الخطابى. فوجود الخطاب لا يمكنه أن يتأكد إلا إذا استطعنا أن نعثر فى مجموع الجمل التى تكونه على تشاكل موحَّد يمكن معرفته بفضل تكرار مقولة أو حزمة من المقولات اللسانية طيلة نمو الخطاب"(٦). فإذا أخذنا الوحدة المعجمية "امرأة" فإنها تحيل إلى مقومات (وحدات معنوية صغرى) مثل: إنسان، عاقل، مؤنث، فرد واحد، جماعة. هذه المقومات لا تحمل دلالة فى ذاتها، بل انطلاقًا من التباينات التى تربطها بمقومات أخرى، أىْ أن مقومات الوحدة المعجمية "امرأة" تتحدد فى علاقتها بـ"الرجل" مثلاً: إنسان، عاقل، مذكر، فرد واحد، جماعة. ورغم اشتراك الوحدتين فى: إنسان، عاقل، فرد واحد، جماعة، فإنهما يختلفان فى: مؤنث بالنسبة إلى المرأة، ومذكر بالنسبة إلى الرجل.

كما أن المقوم السياقى ورغم أنه يتركب من مجموعة من المقومات فإنه يتحدد كذلك من خلال السياق. ومنه نتبين أن العلاقة بين الوحدات المعجمية والمقومات والمقولات السياقية والتشاكلات الدلالية هى علاقة تقوم على الاحتواء والتركيب والترابط؛ ذلك أنها تنطلق من الوحدة الصغرى الخاصة إلى الوحدة الكبرى العامة. كما أن تكرار المقومات المتماثلة والمختلفة يؤكد المقومات السياقية، وتوارد هذه الأخيرة ينتج عنه مفهوم التشاكل.

وإضافة إلى هذه الآليات المتصلة باشتغال التشاكل فى الخطاب، التى تقوم فى الأساس على تراكم المقومات السياقية (المقولات الدلالية)، يرى جريماس أن القراءة الموحدة "تنتج عن القراءات

الجزئية للأقوال وعن حل إبهامها"(٧). وهذا يعنى أن القراءة المنسجمة تتحقق بتوارد المقومات وتسهم فى تحديد التشاكل. لذلك يستوجب مفهوم التشاكل استخراج الوحدات المعجمية والمؤشرات المتمايزة والمتشابهة التى تتراكم فى الخطاب والموجهة للفعل القرائى المتسق والموحد، بما يسمح بفك الغموض الدلالى الذى يكتنفها وصولاً إلى بناء مسار الدلالة.

كما أضاف جريماس فى إطار هيكلة المفهوم مصطلح "التمطيط" expansion الذى يعنى أن "شيئًا يمكن أن يمثل بطريقة بسيطة ومعقدة فى الوقت نفسه، وأن كلمة بسيطة يمكن تفسيرها بمقطع أوسع، وعلى العكس من ذلك فإن كلمة واحدة يمكن أن تحدد، غالبًا، لتعيين ما نراه توسيعًا. [...] فالتمطيط هو ميزة الاشتغال الطبيعى للخطاب، وهو لا يكتسب كل دلالته إلا من خلال مقطع ممطط مساوٍ لوحدة تواصل أبسط منه تركيبيًا"(٨).

إن التمطيط، بما يعنيه من توسيع وتكرار للمقومات السياقية المشتركة والمتعالقة دلاليًا، يتحدد انطلاقًا من التعبير بطريقتين مختلفتين عن مقطعين مختلفين تركيبيًا مع تأمين الدلالة الموحدة فى المستوى المحايث (العميق).

وعلى هذا الأساس، يرى جريماس أن مفهوم التشاكل يقوم على التوليف بين المقومات السياقية المتقاربة، وهو مبدأ أساس لإكساب المقروء الاتساق والانسجام. كما أنه يرتبط بقدرة القارئ على تأويل الخطاب وقراءة ما بين الأسطر وصولاً إلى بناء المعنى. وكل عملية تأويل ترتبط بثقافة القارئ، وتظل ممكنة وصحيحة إذا تنزلت فى إطار من الاتساق الداخلى، وهى تستلزم أولاً تحديد الوحدات المعجمية الخطابية المتقاربة دلاليًا.

لقد ربط جريماس مفهوم التشاكل بالمستوى الدلالى إذ ينبنى على تراكم المقومات السياقية. غير أن هذا التصور لا يتعارض، فى نظرنا، مع تراكم الوحدات اللغوية التى تتجلى فى مستوى النص. فتداخل هذه العناصر (المقومات السياقية والوحدات اللغوية) يجعل من التشاكل مبدأ يشتغل أفقيًا.

إن فعل السارد لا يتوقف على تحديد البرامج السردية والفواعل التى تنجزها فى المستوى التركيبى- السردى فحسب، بل فى جعل الخطاب ينمو ويتوالد من خلال تكرار الوحدات المعجمية التى تنتظم فى إطار التشاكل العام الذى يهيكل الخطاب. فعمليات تراكم هذه الوحدات وتمطيطها تفضى إلى تحديد المقومات السياقية التى تتكاثف لإنتاج التشاكل العام.

تشاكلات النص السجنى

تُعَدُّ قضية "التعذيب فى السجون" محورًا مركزيًا فى مدونة البحث؛ إذ تناولها منيف وصفًا وتحليلاً ونقدًا فى ثلاث روايات: **الأشجار واغتيال مرزوق** بقسمها الثانى، و**شرق المتوسط**، و**الآن.. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى**.

تقوم هذه النصوص على بنية حكائية وتركيبية ودلالية متشابهة. ذلك أن مختلف مكوناتها تتكرر بدرجات متفاوتة لإثبات الموضوع المعالج. لذلك سنتعامل مع هذه الروايات بوصفها نصًا جامعًا واحدًا يتمحور حول ظاهرة القمع فى السجون العربية، كاشفين بذلك عن التشاكلات المنظمة لهذه النصوص فى مرحلة أولى، وعلاقاتها بأسماء الشخصيات وملامحها وأفعالها فى مرحلة ثانية. غير أننا قبل تحليل هاتين النقطتين، نرى أنه من الضرورى إبراز تجليات المماثلة التى دعتنا إلى التعامل مع هذه الروايات بوصفها نصًا واحدًا:

أولاً: يتسم المناخ العام الذى دارت فيه أحداث الروايات بالرعب والمواجهة المفتوحة بين المناضل الضحية والسلطة الجلاد التى تستخدم أدوات قمع متنوعة ومتطورة.

ثانيًا: السرد من موقعين: فى **الأشجار**

واغتيال مرزوق اضطلع بعملية السرد كل من إلياس نحلة ومنصور عبدالسلام، وفى **شرق المتوسط** أوْكَل الروائى السرد لكل من أنيسة ورجب إسماعيل، أما فى رواية **الآن.. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى** فقد سرد الأحداث كل من طالع العريفى وعادل الخالدى.

ثالثًا: المسار السردى المتماثل لكل شخصية رئيسة فى الروايات الثلاث، حيث تولد الشخصية فى مناخ خانق وتفد علينا عبر بوابات السجون والمنافى، وتكاد تنسحب من الزمن الحاضر فترتمى فى الزمن الماضى لنبش الذاكرة المثقلة بالمواجع والآلام التى كابدتها فى السراديب والعنابر والأقبية، لائكة مرارة التعذيب أثناء سفرها للعلاج أو تقديم شكوى للمنظمات الحقوقية. فالنصوص تنفتح باستعداد الشخصية المحورية للرحيل عن الفضاء الأصلى (الوطن) بعد أن تعرضت للحرمان والاعتداء، سواء بالطرد من العمل أو التعذيب فى السجن، مما أدى إلى تدهور وضعها الصحى والمعنوى. مثلاً، منصور عبدالسلام، أستاذ التاريخ المعاصر فى الجامعة، يتعرض لعمليات مراقبة من طرف المخبرين ثم يسرَّح من وظيفته بسبب أفكاره وآرائه. ورجب إسماعيل يعتقل بسبب أنشطته السياسية فتمارس عليه أنواع من التنكيل ثم يحكم عليه بإحدى عشرة سنة سجنًا. يصمد لمدة خمس سنوات ويرفض الكلام بفضل تشجيعات أمه وخطيبته هدى اللتين كان يجد فيهما سلوى وملاذًا. لكن بعد قتل الأم وتخلى هدى عنه بالزواج من رجل آخر، تنجح أخته أنيسة فى تحطيم معنوياته ورباطة جأشه تدريجيًا فينهار رجب ويقبل التفاوض مع جلاديه فى مسألة خروجه من السجن: الحرية مقابل الاستسلام والاعتراف ومدّ جهاز المخابرات بمعلومات حول نشاط الطلبة فى الخارج. فيسمح له بالسفر المشروط إلى فرنسا للعلاج. غير أن رجب بعد مغادرته السجن يسقط فريسة للندم ويتبين أن ما أقدم عليه هو العار بعينه وخيانة للأفكار والمبادئ التى دافع عنها طويلاً ودفع ثمنها تعذيبًا وقمعًا. لذلك يتنصل من الاتفاق الذى أبرمه سابقًا مع جلاديه ويقرر العودة إلى الوطن ليتطهر ويبحث عن الغفران من خلال مجابهة الجلادين من جديد وتدوين تجربة التعذيب كتابيًا لفضح المؤسسات التى تغذيه. وبمجرد وصوله يعتقل من جديد ويعذب فيفقد بصره ويموت بعد ثلاثة أيام. أما طالع العريفى وعادل الخالدى فكل منهما يغادر الوطن بعد أن أصبح موته وشيكًا: "حين بدا موتى وشيكًا، أطلقوا سراحى"(٩). لقد حطمت زنازين عمورية وموران الشخصيتين ولفظتهما هيكلين بلا روح: فطالع العريفى قضى عشر سنوات فى سجون موران العتيدة وعادل الخالدى انتقل فى سجون عمورية مثل السجن المركزى وسجن العفير وسجن العبيد والقليعة وغيرها.

رابعًا: رغبة الشخصية الرئيسة فى كتابة رواية تتعرض لموضوع القمع فى السجون وتعرية الجلادين القتلة.

خامسًا: النهاية المتماثلة للشخصية المحورية فى كل رواية، حيث يموت رجب إسماعيل وطالع العريفى جسديًا جرّاء التعذيب الذى لحق بهما، فى حين ينتهى منصور عبدالسلام وعادل الخالدى سياسيًا.

تشكل مختلف التماثلات القائمة بين الروايات الثلاث الخصائص الفنية للنص السجنى، و"تمثل اتهامًا قاسيًا ضد التعذيب وكل أشكال الهيمنة التى، كما يرى منيف، يختص بها شرق المتوسط"(١٠). وعبر هذه التجليات النصية المتقاطعة، يطرح منيف "القضية المعقدة التى تتصل بعلاقة الفرد بالسلطات"(١١)، كاشفًا بصوت فضائحى عن النظم المتسلطة ومعريًا طرق اشتغالها. فالشخصيات/الضحايا لا تشمل فئة المثقفين المعارضين فحسب بل تتسع لتغطى كل فئات المجتمع. لقد شملت آلة القمع الجميع، سواء

باستخدام السوط أو التهديد، ولا فرق بين مواطن معتقل فى زنزانة وآخر يسكنه الخوف خارجها.

تحيل رواية السجن على رؤية الكاتب عبدالرحمن منيف للعالم وموقفه من القضايا المهمة التى عاشها فى مسيرته الروائية أو النضالية. لذلك اختزنت أغلب نصوصه علاقة الفرد والمجتمع بالسلطة السياسية، كاشفة بذلك عن الخلل السياسى الذى تقوم عليه هذه العلاقة، وهذا ما جعله يتصدى لظاهر

ة القمع والتعذيب ويشهّر بالساهرين على تصنيعه من مؤسسات وحكام وغيرهم(١٢).

لذلك، ورغم أن الرواية مجالها الخيال، فإن النص السجنى الذى برع منيف فى إنتاجه، يُعَدُّ وثيقة شاهدة حية على الواقع السياسى المترهل فى البلاد العربية عمومًا، والمتسم بعلاقة الهيمنة وعدم التكافؤ بين سلطة متجبرة تحتكم إلى العنف والتعذيب باسم القانون وتمثل مصدر القرارات والأوامر الجائرة، ومواطنين عزل إلا من القناعات والمبادئ سواء كانوا مسجونين وراء القضبان أو مسكونين بالرعب خارج السجون. كما أن هذا الملمح العام للعلاقة المختلة بين الأطراف المشكلة لها لم يقتصر على فترة زمنية محددة، بل امتد لفترات تاريخية طويلة: من منتصف السبعينيات، تاريخ كتابة روايته الأولى **الأشجار واغتيال مرزوق**، إلى بداية التسعينيات تاريخ إصدار رواية **الآن.. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى**. فتوارد موضوع التعذيب فى عدة أعمال روائية وفى فترات زمنية ممتدة يؤكد أن الحالة واحدة وإن اختلفت الفترات وتعددت الشخوص: تكثيف فعل الهيمنة والحصار من أجل السلطة المطلقة، الذى تضطلع به شخصيات مهيمنة، فى مقابل البحث عن الحرية والصمود أمام آلات التنكيل الجماعى الذى تنجزه وتتحمله شخصيات مهيمَن عليها.

ومن خلال قراءتنا للنصوص الروائية المتصلة بموضوع التعذيب فى السجون، رأينا أنها تحيل على جملة من التشاكلات الدلالية التى تتوافق مع المشاغل السياسية والفكرية والثقافية للروائى من جهة وتضمن للروايات قدرًا كبيرًا من الانسجام والاتساق الدلاليين.

إن التشاكلات المحددة فى هذا المستوى من التحليل، من المتوقع أن تنعكس على علاقة المواجهة المفتوحة والصراع الدامى بين الشخصيات المتعددة فى المستوى الخطابى (أقوال الشخصيات، أسماؤها والصفات والنعوت التى تسندها الشخصيات بعضها إلى بعض) والبرامج السردية والقيم الدلالية المحايثة. فعلاقة التداخل بين مستويات التحليل هى التى تسهم فى تشييد مسار الدلالة التى ينعقد عليها الأثر فى كليته. وعلى هذا الأساس، فإن تحديد هذه التشاكلات الدلالية يندرج فى إطار منهج البحث القائم على النظر إلى العنصر نفسه (الشخصية الروائية) من زوايا ثلاث: خطابية وسردية ودلالية.

١ - تشاكل الجماعية والفردية

فى هذه النصوص الروائية، تضطلع عدة شخصيات بأدوار غرضية(١٣) (المخبر، المحقق، الجلاد، السجّان، الحارس...)، كما أنها تؤدى أدوارًا محددة وتنفذ تعليمات الماسك بزمام السلطة. أىْ أنها تتكامل فى مستوى الخطاب وتشترك فى إنجاز فعل موحَّد: ممارسة القمع والهيمنة وكل أشكال الضغط على المعتقلين السياسيين لنزع الاعتراف منهم بالقوة. فالممثلون الذين جسدوا أعوان السلطة ليسوا سوى صور خطابية، وهم لا يتمتعون بالاستقلالية والسيادة اللتين تحيلان على الذاتية بل يعملون فى إطار تشاركى وجماعى لإنجاز الهيمنة. وفى النصوص المعالجة يظهر تشاكل الجماعية/الفردية من خلال الأقوال الآتية:

"كانوا أربعة فى غرفة مدير السجن"(١٤).

"الجولة الأولى بالنسبة لهم اختبار لمعرفة وتحديد

أهمية المعتقل: ولذلك فإنهم يلجأون إلى إيهامه بأنهم يعرفون عنه كل شيء"[١٥]. "كانوا كثيرين، وقفوا وتشاوروا ثم ذهبوا راكضين"[١٦]. "ماذا تفيد قوة واحد فى مواجهة ألف"[١٧].

تتضمن هذه الجمل وحدات معجمية متقاربة ومتعارضة دلاليًا، وتندرج فى إطار تشاكل الجماعية/الفردية، ويمكن أن نحول هذا التشاكل فى الجدول الآتى:

المقوم السياقى: الجماعية	المقوم السياقى: الفردية
• كانوا أربعة • لهم، إنهم • يلجأون، يعرفون، وقفوا، تشاوروا، ذهبوا راكضين • أقدامهم • كانوا كثيرين • ألف	• المعتقل • إيهامه • عنه • واحد • ـــــتُ

يحيل تراكم الوحدات المعجمية الأولى المتقاربة دلاليًا على المقومات الآتية: مجموعة أفراد تنجز مهمة، غير معدودة، عامة. وهذه الكثرة تكشف عن المقوم السياقى: "الجماعية". فى حين تكشف الوحدات الثانية عن المقومات الآتية: فرد واحد، معدود، خاص. وهذه المقومات المتكررة تدل على المقوم السياقى الآتى: "الفردية".

تندرج هذه التباينات فى إطار بنية المواجهة المفتوحة بين فئتين من الشخصيات:

الشخصيات جماعية / الشخصية فردية

الكثرة / القلة

٢ – تشاكل القوة الجسدية والقوة المعنوية

إن بنية الصراع والمواجهة هى التى تجعل الخطاب ينمو فى اتجاهين متعارضين ومتوازيين فى الوقت نفسه. وهذا التقابل يتجسد فى المسارات الآتية التى تحيل على تشاكل القوة المادية والقوة المعنوية:

"وهذا الملك قاس لدرجة أن الشرر يتطاير من عينيه دائمًا، وكل يوم يقتل مئات الناس"[١٨]. "كانوا كبارًا..."[١٩]. "الزبد يتطاير حول أفواههم، [...]، العيون تنفتح من الدهشة والغضب، [...]. كان جسدى يرتعش، يتمزّق، يتحول إلى كلب لا يتوقف عواؤه"[٢٠]. "عبد الطويل والذى تشبه يده سمكة كبيرة ثقيلة، حاتم المعروق الوجه، نورى بضحكته المدوية، عندما يسخر، عندما يتحدّى"[٢١]. "إن هادى جدلية من الصمود، غزلتها الأيام الصعبة والشقاء، ورمتها فى وسط الناس كتلة ملتهبة، لا تخبو ولا تتوقف"[٢٢]. "هناك لحظات وحالات يصبح معها الموت شغفًا ورغبة، يفقد الإنسان الخوف ويتحول إلى حالة من العناد أقسى من الصخر"[٢٣].

تتضمن هذه المقاطع صنفين من الوحدات المعجمية:

المقوم السياقى: القوة المعنوية (السجين)	المقوم السياقى: القوة المادية (أعوان السلطة)
• هادى جدلية من الصمود. • كتلة ملتهبة. • لا تخبو. • لا تتوقف. • يفقد الإنسان الخوف. • يتحول إلى حالة من العناد..	• عبد الطويل. • يقتل مئات الناس. • تشبه يده سمكة كبيرة ثقيلة. • المعروق الوجه.

تكشف الوحدات المعجمية الأولى عن البنية الجسدية القوية التى يتميز بها أعوان السلطة (الطويل، تشبه يده سمكة كبيرة ثقيلة، المعروق الوجه..). وهذه الصفات تنسجم مع السمات الداخلية (القسوة، الشرر، الغضب، السخرية..). يحيل تراكم هذه الوحدات المتقاربة دلاليًا على القوة الجسدية التى تميز هذه الشخصيات.

وفى المقابل، يواجه السجين القوة المادية للسجانين والمحققين والجلادين بقوته المعنوية التى تجلت من خلال الوحدات الآتية: (هادى جدلية من الصمود، كتلة ملتهبة لا تخبو، لا تتوقف، إرادتى هى التى تقاوم، يفقدُ الإنسان الخوف، يتحول إلى حالة من العناد).

يتكامل هذا التشاكل الدلالى مع التشاكل السابق ويعزِّز علاقة المواجهة بين الجلاد والضحية وهو ما يتجلى فى الترسيمة الآتية التى تسهم فى تحقيق الانسجام داخل النص:

الشخصيات الجماعية/الشخصية الفردية

القوة الجسدية/القوة المعنوية

٣ - تشاكل العلنية والسرية

يصدِّر منيف رواية **شرق المتوسط** ببعض مواد **الإعلان العالمى لحقوق الإنسان** التى تقرُّ بأن "لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه"[٢٤]، و"أن لا يعرض أى إنسان للتعذيب أو للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة من الكرامة"[٢٥].

وهذا يعنى أنه ينظر إلى هذه القضايا الساخنة بوصفها ضرورات حياتية تقرها الدساتير، وواجب "الدولة" أن تضمن هذه الحقوق نصًا وممارسة.

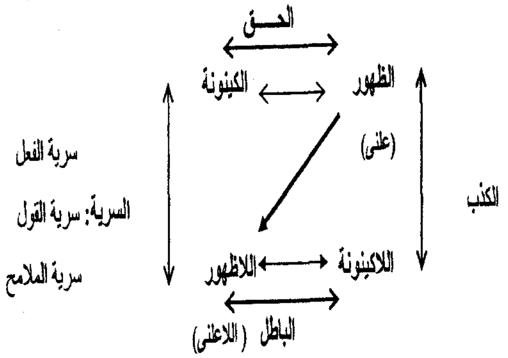
وفى المسار الخطابى الذى يميز الشخصيات السجينة نجد أقوالاً عديدة تحيل على مقوم "العلنية": فرجب إسماعيل يرى أن "نداء الحرية [...] أقوى من نداء الجوع"[٢٦]، وأنه "أراد بالفكرة والكلمة أن يجعل حياة الناس أكثر سعادة"[٢٧]. تتسم أقوال رجب وأفعاله بالعلنية، حيث يفضح بشكل صريح حالة العطب التى ألمت بالنظام الرسمى العربى وأدت إلى تكريس الإذعان للأجنبى وسيادة الهيمنة والقمع فى الداخل. وهو بذلك يرى أن الحرية مطلب رئيس، ولا يمكنها أن

تنمو فى مناخ يحتكم إلى العنف والقوة والإقصاء بل فى إطار علنى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ويضمن حقوق كل طرف وواجباته.

أما تشاكل السرية فقد اختصّت بها وضعية أعوان السلطة، وقد تجسد هذا الأمر فى النصوص من خلال الأقوال الآتية:

"اقتلوا مرزوق، لا أحد يدرى مَن قتله، وكيف قتل. قالوا إنه وجد مقتولاً والسلام"(٢٨). "بعد أن قطعنا بضعة كيلومترات، وأصبحنا خارج المدينة، استخرج الذى كان يجلس على يمينى قطعة من القماش وعصّب عينىّ، فعل ذلك دون كلمة، وبطريقة آلية متقنة"(٢٩). "لا أعرف أين كنت أو إلى أين سيأخذوننى [...]. ربطوا العصابة حول عينى، وأحكموا شدّها"(٣٠). "كانوا يضعون على وجوههم الأقنعة"(٣١). "كانوا جميعًا مقنعين، كانوا يضعون على وجوههم أغطية أو جوارب، وكنت الوحيد المكشوف الوجه!"(٣٢).

تشمل هذه الأقوال مجموعة من الأفعال والأسماء المتشابهة دلاليًا: "لا أحد يدرى مَن قتله، عصّب عينىّ، لا أعرف أين كنت، ربطوا العصابة حول عينىّ، كانوا يضعون على وجوههم الأقنعة، كانوا مقنعين، يضعون على وجوههم أغطية أو جوارب..". يحيل تكرار هذه الوحدات على تشاكل السرية الذى يسم أقوال الشخصيات المهيمنة وملامحها وأفعالها. وهذه السرية أفقدت المعتقَل القدرة على تحديد الأمكنة والتعرف على خصومه بسبب العصابة الموضوعة على عينيه أو الأقنعة التى يتخفى وراءها أعوان السلطة، وهو ما يجعل أعمالهم فى موضع ريبة وشكّ وشبيهة بعمل العصابات. إن تشاكل السرية الذى ميّز تصرفات الشخصيات المساعدة للسلطة يمكن أن نمثله فى المربع السيميائى(٣٣) انطلاقًا من مقولة الظهور والكينونة:



إن تحول الشخصيات الجماعية من الظهور إلى اللاظهور أو من العلنى إلى اللاعلنى قد تحقق من خلال تشاكل السرية التى اختصت بها هذه الشخصيات.

٤- تشاكل التعذيب والصمود

تتراكم الوحدات المعجمية الدالة على مقوم التعذيب الذى يختص به الجلادون من جهة ومقوم الصمود والشجاعة والقوة المعنوية التى ميزت ردود أفعال السجين. وقد تجسد هذا التقابل من خلال عدة أقوال نذكر منها:

"لم أرهب، لم أتراجع، الماء البارد ليكن، التعليق لمدة سبعة أيام، ليكن، التهديد بالقتل والرصاص حولى يتناثر، ليكن، كانت إرادتى هى التى تقاوم"(٣٤). "كانوا يزدادون ضراوة وجنونًا وكنت أزداد عنادًا وشراسة"(٣٥).

تنتظم داخل هذه الأقوال سلسلة من الوحدات المعجمية المتشابهة دلاليًا تحيل على التعذيب (الماء البارد، التعليق لمدة سبعة أيام، التهديد بالقتل، الرصاص، الضراوة، الجنون). وفى مقابل ذلك يورد الراوى وحدات أخرى تكشف عن صمود السجين، وقد جاءت فى شكل أسماء مفردة ومركبات (إرادتى، العناد، الشراسة)، وأفعال متشابهة دلاليًا (لم أرهب، لم أتراجع، تقاوم..).

تتعالق هذه الوحدات دلالياً لتحيل على تشاكل الصمود والشجاعة الذى ميز ردود أفعال السجين، فى مقابل تشاكل التعذيب الذى يخصص أفعال الجلادين والسجانين، وهو ما يحيل على طبيعة المواجهة المفتوحة بين الطرفين:

الشخصيات الجماعية / الشخصية الفردية

الجلادون / السجين

التعذيب / الصمود

٥ - تشاكل الأمر والطاعة

ينمو خطاب رواية السجن من خلال توارد الوحدات المعجمية التى تحيل على التشاكلات الدلالية التى تضمن للنص الاتساق والانسجام. وهذه التشاكلات تحدّد ملامح وأفعالاً وأقوالاً تخص رموز السلطة من جهة والسجين من جهة ثانية. تَجسد تشاكل الأمر والطاعة بتوارد الوحدات الآتية:

"اخلع ملابسك كلها، قطعة وراء قطعة أخرى ولا تتأخر"[٣٦]. "عصّب عينيك واستعد [...]. ومثل طفل مطيع وخائف وضعت العصابة حول عينى، وبدأت أنتظر"[٣٧]. "قف عندك ولا تتحرك"[٣٨]. "ديمقراطية وكلام فاضى ما عندى، أغلبية ورأى جماعى كلام يقال لغيرى، لأن الشىء الوحيد الذى أفهمه النظام، والنظام لا يكون إلا بتنفيذ الأوامر.. أتسمعون؟"[٣٩].

تحيل هذه الأقوال على صنفين من الوحدات: الأول، وحدات تحيل على مقوم سياقى هو إصدار التعليمات التى ميزت أقوال الشخصيات المهيمِنة والموجهة إلى السجين الذى حضر من خلال ضمير المخاطب المفرد (أنت) تارة وضمير المتكلم المفرد أخرى (ـتُ): (اخلع ملابسك كلها، لا تتأخر، عصّب عينيك، استعد، قف عندك، لا تتحرك). أما الثانى فوحدات تدل على تنفيذ الأوامر والطاعة القسرية التى ميزت ردود أفعال السجين الذى فقد القدرة على الاختيار وتحول إلى مجرد موضوع: (طفل مطيع، وضعت العصابة على عينى، بدأت أنتظر). تؤشر الوحدات المتقابلة على علاقة إلزامية، حيث إن الشخصيات المهيمِنة تصدر الأوامر المهينة والمعتقَل ينفذها وهو مكره، وهو ما يعزز التشاكلات السابقة حيث إن:

الشخصيات الجماعية / الشخصية الفردية

إصدار الأوامر / تنفيذ الأوامر

الإلزام / الطاعة

الخاتمة

لقد ساعدنا تحليل خطاب رواية السجن على تحديد تشاكلات الجماعية، القوة المادية (الجسدية)، السرية، التعذيب، إصدار الأوامر من جانب أعوان السلطة (المهيمِن)، فى مقابل الفردية، القوة المعنوية، العلنية، الصمود، تنفيذ الأوامر تحت الإكراه من جانب السجين (المهيمَن عليه). وهذه التشاكلات الناتجة عن صيغ تراكم الوحدات المعجمية والمقومات السياقية هى التى ضمنت للنصوص الاتساق الدلالى؛ إذ إنها تتعالق فيما بينها وتنتظم لتدعم البنية الدلالية العامة: السلطة المطلقة فى مقابل البحث عن الحرية.

تعالج روايات النص السجنى موضوع الصراع المفتوح ومتعدد المستويات بين السلطة السياسية القمعية التى تجسدت من خلال عدة شخصيات، والمواطن السجين و/أو المجتمع (الضحية). وهى بذلك تكشف عن المعادلة الصعبة بين تطلعات الفرد المشروعة إلى الحرية وممارسة حقوقه المتنوعة من جهة والضاغطات المسلطة عليه باسم القانون من جهة أخرى. ومنيف من هذا المنظار يجسد صوتًا فضائحيًا؛ إذ إنه يقتحم المسكوت عنه فى طبيعة العلاقات القائمة بين الحاكم والمحكوم، بين المهيمِن والمهيمَن عليه.

الهوامش :

(١) استفدنا عند ترجمة هذا المصطلح وبعض المفاهيم الأخرى المرتبطة به من كتاب:
عبدالمجيد نوسى: **التحليل السيميائى للخطاب الروائى: البنيات الخطابية - التركيب - الدلالة** (الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، ٢٠٠٢).

(٢) يعرف جريماس المقوم بأنه "الوحدة الصغرى للدلالة وهو عنصر لا يتمتع بالاستقلالية وليس له وجود إلا من خلال علاقات الاختلاف التى تربطه مع مقومات أخرى". لمزيد من التعمق، انظر:
Greimas (A.J) et Courtés (J.): **Sémiotique, Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage**, tome I, p. 332-333

(3) Greimas (A. J): **Sémantique structurale**, PUF, 1986, p. 69.

(4) Ibid, op. cit, p. 53

(5) Ibid, op. cit. p. 96

(6) Greimas (A. J): **Maupassant, la sémiotique du texte, exercices pratiques**, Seuil, Paris, 1976, p. 28

(7) Greimas (A. J): **Du sens, essais sémiotiques,** Seuil, Paris, 1970, p. 188.

(8) Greimas (A.J): **Sémantique structurale**, op. cit, p. 73

(٩) عبدالرحمن منيف: **الآن.. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى** (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط. ٣، ١٩٩٢)، ص ٧، سنختصر هذه الرواية من الآن فصاعدًا إلى: **الآن.. هنا**.

(10) Toelle (Heidi): «Individu et Pouvoir dans Sharq Al- Mutawassit», NAQD, Revue d'études et critique sociale, n° 11, Printemps, 1998, p. 143.

(11) Ibid, op. cit. p.143

(١٢) لقد خصّ منيف موضوع التعذيب فى السجون بعدّة مقالات وكتب سياسية مما يجعله يحتل موقع المفكر والمناضل السياسى المدافع عن الحرية وحقوق الإنسان. انظر كتابه: **الديمقراطية أولاً.. الديمقراطية دائمًا** (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٢).

(١٣) فى السيميائيات السردية والخطابية، تضطلع الشخصية بأدوار فاعلية متصلة بالتركيب السردى فى مستوى السطح وأدوار غرضية تهيكل المكون الدلالى للخطاب. انظر:
Greimas (A. J.), Courtès (J.): **Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, T. I. p. 4 et 5

(١٤) عبد الرحمن منيف: **شرق المتوسط** (تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٨٢)، ص ٣٩.

(١٥) عبدالرحمن منيف: الآن... هنا، ص ١٥٤.

(١٦) المرجع السابق: ص ٢٤٠.

(١٧) المرجع السابق نفسه.

(١٨) عبد الرحمن منيف: **الأشجار واغتيال مرزوق** (بيروت، دار العودة، ط. ١، ١٩٧٣)، ص٢٤٧.

(١٩) **شرق المتوسط**، ص ١٤٠.

(٢٠) المرجع السابق: ص ١١٦.

(٢١) المرجع السابق: ص ١٣٤.

(٢٢) المرجع السابق: ص ١٨٢.

(٢٣) **الآن.. هنا**، ص ٢٤٥.

(٢٤) المادة الثالثة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

(٢٥) المادة الخامسة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

(٢٦) **شرق المتوسط**، ص ١٣٢.

(٢٧) المرجع السابق: ص ١٩٢.

(٢٨) **الأشجار واغتيال مرزوق**، ص ٣٤٧.

(٢٩) **الآن.. هنا**، ص ١٥٢.

(٣٠) المرجع السابق: ص ١٥٧.

(٣١) المرجع السابق: ص ٢٢٠.

(٣٢) المرجع السابق: ص ٢٢٣.

(٣٣) يعنى المربع السيميائى تمثيل التمفصل المنطقى لمقولة دلالية معينة. فالبنية الأولية للدلالة يمكن أن تحدد باعتبارها علاقة بين مفهومين على الأقل وهى لا تقوم إلا على تمييز من التعارض. فإذا انطلقنا من المقولة الدلالية: الحياة/الموت ومثلنا الحدين على المحور الدلالى، فإن العلاقة بين الطرفين قابلة لأن تدغم علاقة جديدة من نوع: الحياة/ اللا - حياة، الموت - اللا - موت. يأخذ تمثيل مجموعة العلاقات هذه إذن شكل المربع السيميائى. لمزيد التعمق يمكن الرجوع إلى:

Greimas (A.J) et Courtés (J.), **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage** I, p. 29-30

(٣٤) **الآن.. هنا**، ص ١٨٥.

(٣٥) المرجع السابق: ص ٢١٦.

(٣٦) **شرق المتوسط**، ص ١٢٨.

(٣٧) المرجع السابق: ص ١٨٣.

(٣٨) **الآن.. هنا**، ص ١٦٨.

(٣٩) المرجع السابق: ص ٤٠١.